غرس النعمة الصابئ والمجتمع الاسلامي / دراسة تاريخية

أ.م.دعبد الكريم عزالدين صادق الاعرجي
قسم التاريخ /كلية التربية للبنات
جامعة بغداد

(خلاصة البحث)

يزخر التراث العربي الاسلامي بامهات الكتب العربية في ميادين مختلفة وهنالك العديد من كتب الادب والتاريخ التي احتوت بين دفتيها صورا من المجتمع الاسلامي في عاداته وتقاليده .

والدراسة التاريخية الاجتماعية تبين لنا عمق الاحداث التاريخية المعروفة ، كما انها تصورالنشاطات الاجتماعية للعائلة الاسلامية ، فهي فضلاً عن عمق متعتها ومتابعتها فانها تحتوي على معلومات تاريخية هي الاقرب الى الحقيقة لكون تلك الموضوعات هي في الاساس بعيدة عن التجاذبات والمشكلات السياسية .

المقدمة

عائلة (الصابئ) من العوائل الأدبية المثقفة في تاريخنا الاسلامي، التي ظهرت في منتصف العصور التاريخية العباسية، فكان منهم الجد والابن والحفيد ،وكلهم عرفوا بفنون الادب والكتابة ، وهم من (آل زهرون بن حيون الصابئ الحراني، وآل زهرون هم انساب آل قرة ، والصابئة الحرانية جماعة لها دينها ومذهبها)[1].

فوالد غرس النعمة ،هو ابو الحسين هلال المحسن (ت 448هـ) ،صاحب كتاب (تاريخ الوزراء وكتاب رسوم دار الخلافة) .

وجده المحسن ابو علي صاحب الشامة (ت 401 هـ) ،ووالد جده هو ابراهيم ابو اسحق الصابئ (ت384هـ)، نابغة كتاب جيله ، وكان اسلافه يعرفون بصناعة الطب

فمال هو الى الادب ، مع علمه بالهندسة ، فغلبت عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر [٢].

ولد غرس النعمة الصابئ في بغداد ونشأ فيها ، وأخذ عن اعلام عصره ، واتيح له ان يطلع على شؤون دار الخلافة ورسومها واسرارها وخفاياها واحوال ساكنيها ، وان يطلع ايضاً على احوال وزراء العصر وان يرى كثيراً من الوثائق الرسمية ، وقد افاد من ذلك كله مادة غنية استغلها في التاليف ، فضمن في كتبه تجاربه الطويلة .

والجدير بالذكر ان غرس النعمة هو الحفيد الخامس لجد اسرته آل زهرون [٣] ، كما في شجرة نسبه[٤]، وهي : زهرون بن حيون (الصابئ الحراني) ، (ابراهيم ابو اسحق /طبيب توفي ببغداد سنة 309هـ)، هلال ابو الحسين – طبيب ـ ابراهيم (ابو اسحق صاحب الرسائل المشهورة ت 384 هـ ـ المحسن (ابو علي صاحب الشامة ت 401هـ)ـ هـلال (ابو الحسين والد غرس النعمة ابي الحسن مؤلف الهفوات النادرة ت480 هـ)[٥] .

وعاصر غرس النعمة صاحب الهفوات ثلاثة من خلفاء بني العباس في القرن الخامس الهجري ، حيث ولد في عهد الخليفة القادر (381 ـ 422 هـ) ،وقضى شبابه وكهولته في عهد الخليفة القائم (422 ـ 467 هـ) ، وعاش شيخوخته في خلافة المقتدي (467 ـ487 هـ)، وعاصر العقود الثلاثة الاخيرة من حكم ملوك بني بويه ، والعقودالثلاثة الاولى لحكم السلاطين السلاجقة في بغداد .

والمعروف ان غرس النعمة ،ابو الحسن محمد بن هلال الصابئ ، هو اول مولود على الاسلام من هذه الاسرة ، فكانت ولادته من زوجة ابوين مسلمين ، وان والده اعلن اسلامه سنة (403هـ) وله من العمر اربع واربعون سنة [٦]، وذكرت كتب التراجم ان سنة ولادته كانت في سنة (416 هـ) ، ونشأ في رعاية ابيه ، وعليه تخرج في الانشاء والكتابة والاداب [٧].

وكان لوالده الاثر الكبير في تكوين ثقافته وشخصيته الادبية ، وهو الذي

وجهه الى كتابة التاريخ والادب والكتابة ، وفي مؤلفات غرس النعمة نقول كثيرة عن والده ، واشارت كتب التراجم الى ان غرس النعمة كان على صلة وثيقة بالكثير من الاصدقاء والمعارف [٨]، وهذا يدل على انه ذو شخصية اجتماعية محبوبة .

لقد كانت لعلاقاته الاجتماعية الحميمة ، اثرها في تمتين علاقته مع الناس ، وفي تنشيط حركته الادبية والثقافية ، فكانت اهم آثاره ومصنفاته هي : كتاب التاريخ ، وكتاب الربيع ، والهفوات النادرة .

ولم يصل الينا منها سوى كتاب الهفوات النادرة ،ويسمى ابن خلكان كتابه في التاريخ ب(التاريخ الكبير) ، وينقل عنه في كتابه (وفيات الاعيان) ،وهو من اشهر مؤلفاته [٩]، حتى اذا اراد بعض المؤرخين التعريف بغرس النعمة قال انه (صاحب التاريخ) ،والاسرة الصابئية نبغت في تدوين التاريخ ، حيث قام ابو اسحق ابراهيم بن هلال بتدوين تاريخ بني بويه في كتابه المعروف (التاجي) .

ويذكر سبط ابن الجوزي في حوادث سنة (448 هـ) ،ان غرس النعمة عمل بوصية والده ، اذ قال في هذه السنة المذكورة ابتدأ ابو الحسن محمد بن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابئ الكاتب ، ويسمى غرس النعمة ، تاريخه وذيله على تاريخ ابيه هلال ، وزعم ان تاريخ ابيه انتهى الى هذه السنة [١٠].

كتاب الهفوات النادرة

يعد كتاب الهفوات النادرة الكتاب الوحيد الذي وصل الينا من كتبه ، وهو من الكتب الممتعة والممزوجة بالعبارات واللفتات الادبية المميزة ، وتم تأليف الكتاب بعد سنة (452هـ) ،وهي السنة التي وقف فيها المؤلف دار كتبه بشارع ابن ابي عوف في بغداد ،كما يصرح بذلك في كتابه ، والاحداث الاخرى المعاصرة لحياة المؤلف يمكن ان ترد الى اوقات تسبق هذا التاريخ [١١].

محتوى الكتاب

سمى غرس النعمة كتابه بالهفوات النادرة ، ويقصد به المواقف المحرجة التي يقوم بها بعض الناس في الوسط الاجتماعي ، واغلب تلك المواقف غير مقصودة ، ولكنها تأتي بالاحراج وبالنتائج السلبية المتوخاة من تلك المواقف .

المحتوى العام للكتاب عبارة عن اخبار وحكايات قصيرة تقع في (405) رواية ، اذ اشار فيها المؤلف الى غايته من تأليفه ، وحدد الموضوع الاساس الذي تدور عليه تلك الحكايات ، وهي الاخطاء التي يرتكبها الاذكياء والمتحرزون عن سهو وغفلة منهم ، اوالهفوات التي تقع من الفارين الغافلين .

بدأ غرس النعمة هفواته بحكاية هفوة وقعت منه ثم راح يروي حكاية الهفوات الاخرى التي حدث بها او التي وقع عليها في مطالعاته لمختلف الكتب ، والمؤلف امين يروي ما ينقل ، مصدراً كل خبر بذكر مصدره .

من دراسة هذه المصادر الغنية يبرز لنا مدى الجهد والعناء الذي لاقاه غرس النعمة في جمع جزئيات كتابه الممتع وحكاية تلك الهفوات النادرة التي تتخللها اخبار مسلية ايضاً عن بعض المغفلين الجهال المحظوظين المرزوقين ، وينتهي الكتاب بالهفوة الخامسة بعد الاربعمائة دون خاتمة المؤلف .

وماذكره الؤلف من اخبار المغفلين المحظوظين والجهال المرزوقين التي ليست من موضوع كتابه، وهو لاعتقاده بان هذه الاخبار جارية باسلوب الهفوات وشبيهة بهدف الكتاب ايضاً ، وعليه فانه يسمى كتابه (الهفوات النادرة من المعقلين الملحوظين ، والسقطات البادرة من المغفلين المحظوظين) [١٢].ولكننا نلاحظ بان المؤلفين الذين نقلوا عن هذا الكتاب ، قد اختصروا عنوانه الى (كتاب الهفوات)[١٣] ،وسماه بعضهم (الهفوات النادرة)[١٤] .

تأثر غرس النعمة في هذا الكتاب بمنهج من سبقه في الكتابة والتصنيف لمثل هذا النوع ، ويبدو أنه كان شديد التأثر بالقاضي التنوخي (ت 384هـ) ،صاحب كتاب

(نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة) ، ولذلك كان كتابه (الربيع) ،هو تذييل على كتاب النشوار للتنوخي ، وعليه فلقد ذكر ياقوت الحموي في ترجمته للتنوخي قائلاً : (قال غرس النعمة : صنف ابو علي المحسن كتاب نشوار المحاضرة في عشرين سنة اولها سنة 360هـ ، وذيله غرس النعمة بكتاب سماه الربيع ، قال ابتدأته في سنة 468هـ) [١٥].

اما الاهمية التاريخية لكتاب الهفوات النادرة ، فهو يضم مجموعة كبيرة من الاخبار والحكايات التي تروي صوراً من وقائع الاحداث ومشاهد الحياة للعصور التي تتصل بها ، فهي اخبار واقعية تاريخية ، ورصد للجانب الحضاري والعمراني منها ، وكذلك الجانب الاجتماعي والبيئي ، وتلك امور قد لاترفدنا بها كتب التاريخ العام ونقصد به التاريخ السياسي على سردها وكثرتها ، فكتابه أثرٌ عباسيٌ نثريٌ اصيلٌ ، ذو قيمة ادبية وتاريخية كبيرة .

وقمنا في هذا البحث بدراسة اهم الروايات التاريخية الاجتماعية في هذا الكتاب ،ولم نعتمد على روايات الهفوات فقط ، بل بحثنا يعُنى برصد الروايات التاريخية الاجتماعية المتعلقة بتخصصنا .

مصادره

احتوى الكتاب على الكثير من المعلومات والوقائع الاجتماعية المختلفة، وقد تعددت مصادرها ، وهي في الغالب منقولة من بطون الكتب التي كان غرس النعمة يطالعها ، وهو المعروف بشغفه الكبير بالمطالعة ، وكان يصرح احياناً باسمائها ، مثل كتاب الأوراق للصولي [١٦]، وكتاب نشوار المحاضرة للتنوخي [١٧]، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ [١٨]، او يكتفي احياناً بعبارته المشهورة (وجدت في بعض الكتب) [١٩]، ويذكر احياناً اسم المؤلف دون كتابه (وذكرابو الفرج الاصفهاني) [٢٠]،وذكر المبرد (قال:...) [٢١]، واذا لم يكن المصدر كتاباً مقروءاً بل كان علماً من معاصريه راينا المؤلف حريصاً الى بيان عائدية كل خبر يرويه على صاحبه بامانة وروح علمية واضحة .

كما انه اسوة بمؤلفي عصره فانه لايذكر سند الرواية بالتفصيل ، اذ شهدت تلك المدة الزمنية اسلوب جديد في الكتابة يعتمد على الغاء التفاصيل في ذكر سند الرواية ، وعدَ ذلك من الامور التي تؤدي إلى ملل القارئ في المطالعة .

الوصف الاجتماعي

يتطرق الصابئ في كتابه الى الكثير من المظاهر الاجتماعية ، وقد وصفها بصورة أدبية وفنية محكمة ،وان هذه المظاهر توضح الفائدة التاريخية المتوخاة من دراستها ، وعلى سبيل المثال فانه يروي لنا صورة تاريخية عن بحر النجف الذي يقع في مدينة النجف الاشرف ، فيصف البحر بانه يحتوي على حسن الماء واتساعه واصوات الملاحين وصيد السمك ، وكذلك رعاة الابل وصيد الظباء والارانب والثعالب وجناة الكمأة [٢٢].

وهنالك صور لبعض القصور فمنها أن الخليفة المامون العباسي خرج يوماً الى الشام ،وطاف على قصور بني امية ومنها دخوله صحناً من صحونها فاذا هو مفروش بالرخام الاخضر كله ،وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها ،وفي البركة سمك ، وبين يديها بستان على اربع زواياه اربع سروات شجيرات كانها قصت بمقراض من التفافها [٢٣].

ويصف قصر الخليفة المقتدر العباسي بان في سقفه ساج مذهب ، والبيت فيه ماء من داره على دجلة بباب خراسان [٢٤].

ويعطي لنا وصفاً جميلاً عن السلوكيات السلبية لبعض الناس، ومنهم الحمقى ، فاحدهم حصل على مال كثير ، فقامر به وعمل كل ما اشتهى ، وضجر من المال فقال لجلسائه : (افتحوا لي باب صناعة اتلف فيها بقية هذا المال ، لاتعود عليَ بشئ منها ، فقال احدهم : تشتري التمر من الموصل فتبيعه بالبصرة ، فقال : اليس يعود من ثمنه شئ وان كان قليلاً ،وقال آخر :تبتاع الابر التي كل ثلاث واربع بدرهم ، وتجمع منها الوفاً كثيرة وتسبكها سبيكة لاتساوي خمسة دراهم . قال : وذا ايضاً يعود منه خمسة

دراهم ، وما قصدي الا ما يعود منه درهم واحد ، فقال آخر :أبتع ثياباً ، واخرج الى الاعراب فبعها عليهم وخذ سفاتج منهم الى الاكراد ،وافعل مثل ذلك مع الاكراد ، فما يرجع اليك شئ ، فقال : ذلك ، وفعله في بقية ما بقي منه) [٢٥].

ويبدو بان غرس النعمة الصابئ ، يريد ان ينبهنا الى مخاطر الحمق وآفاته ، فذكر لذلك روايات متعددة [٢٦]، كما انه يبغي من وراء ذلك اطلاع الاخرين على أصول وتقاليد السلوكيات الحسنة والسليمة ، وعدم الانجرار وراء الاخلاق المذمومة ، فهو عندما يصف وزير المنتصر احمد بن الخصيب ، فيقول عنه : (انه خفيفاً طائشاً ، وكان يرفس المتظلمين ، واذا كثروا عليه وهو راكب يبصق عليهم) [٢٧].

ويذهب ببيان عورات هؤلاء الحمقى ومايفعلونه من مخاطر على حياتهم ، مبيناً بان (عجل بن لجيم) من محمقي العرب ، فقيل له يوماً ان لكل فرس اسماً ، فما اسم فرسك فانه جواد ؟ ،قال: لم اسمه ، قالوا :فسمه ، ففقأ احدى عينيه وقال قد سميته الاعور [٢٨].

وهنالك صور اجتماعية ناقدة للاغنياء واصحاب الثروة في ذلك العصر ، بينها المؤلف ومنها: أن عبد الله بن الجصاص وهو الجوهري المعروف ، ركب يوماً مع الوزير الخاقاني في سفينته النهرية ، وفي يده بطيخة فيها كافور ، فاراد ان يعطيها للوزير ويبصق في دجلة ، فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في دجلة ، فارتاع الوزير واشتغل بغسل وجهه مما اصابه ، وانزعج ابن الجصاص وتحير لما شاهده من سوء فعله وشدة تخلفه ، فقال :والله العظيم ايها الوزير لقد اخطأت ، وغلطت اردت ان ابصق في وجهك وارمي بالبطيخة في دجلة ، فقال له الوزير : كذلك فعلت ياجاهل فغلط في الفعل واخطأ في الاعتذار [٢٩].

وهذا يدل على حماقة وانحطاط الطبقة الغنية الخاصة التي ظهرت في العصر العباسي الاخير ، والمعروف أن ابن الجصاص قد تم مصادرة املاكه وامواله في ايام

الخليفة العباسي المقتدر ، فكانت ستة الاف دينار ، سوى ما قبض من داره ، وبعد الذي بقي له من ظاهره وهي : عقار في الكرخ وقيمته خمسون الف دينار ، وبستان وضيعة ، وبقى له من المال بالبصرة قيمته مائة الف دينار ، وان مجموع تلك القيم من العقارات والضياع بلغ سبعمائة الف دينار ، فضلاً عن الجواهر والاثاث والقماش ، والطيب والجواري والعبيد والدواب ، وداره ، فكانت ثلثمائة الف دينار ، وبذلك اصبحت املاكه بعد المصادرات تقدر بالف الف دينار [٣٠].

ويظهر لنا أن بعض الصراعات السياسية التاريخية لها آثارها السلبية على التكوين العام للنسيج الاجتماعي ، فعندما حاصر عبد الله بن علي عم الخليفة المنصور ،مدينة دمشق في ايام الثورة العباسية ، فانه لم يقدر عليها حتى وقع الصراع بين اليمانية والمضرية من اهلها ، واختلفوا وتلاعنوا في المساجد ، واقتتلوا بالايدي والنعال ، فآل ذاك الى فتحها ، وعند ذاك نصبوا في الجامع قبلتين : هؤلاء يخطبون لبني هاشم ويصلون ، واولئك يخطبون لبني امية ويصلون [٣١].

وهنالك الهفوات والمفارقات الاجتماعية مقرونة بالمواقف المحرجة والصعبة في حضرة الخلفاء وكبار رجال الدولة ، ومنها أن المتوكل اقبل يوماً ،فقام الناس اليه من بعيد ، ولم يقم المنتصر ابنه حتى قرب منه ، فاغتاظ المتوكل ، وجرى على لسانه :

هم سمنوا كلباً ليأكل بعضهم ولو عملوا بالحزم ما سمنوا الكلبا

فلم يبعد ان قتله ابنه المنتصر بعد ذلك [٣٢].

والحال ينطبق على الشاعر الذي قدم الى عبد الملك بن مروان ، فقال له : مااسمك ؟ قال : غيلان ، قال : ابن من، قال : ابن عقبة ، ونسبه ، فانتسب الى مضر ، واستنشد ه قصيدة اولها :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مغرية سرب

واتفق ان كانت عينا عبد الملك تسيلان دائماً فظن انه عرض به ، فغضب وقطع انشاءه

وامر باخراجه [٣٣].

وفي الوقت نفسه فان ابن الصابئ ، يروي لنا رواية بان امراة وقفت للمامون على الطريق وقد تحفظت كلاماً سجعته ورتبته وهيأته ، فعلم المامون انها غالطة ، فقال :الله يفعل بنا مانويته لاما ابديته ،اقضوا حاجتها [٣٤].

الغناء والموسيقى

هنالك صور اجتماعية مختلفة في كتاب الصابئ عن الغناء والموسيقى في المجتمع الاسلامي ،على الرغم من الاشكاليات الشرعية حول السماع الى الغناء والموسيقى ،وذهب منهم بالرأي " بان الوتر او العود وحده من غير وتر لو ضرب لم يحرم ولم يطرب فاذا اجتمعا وضرب بهما على وجه مخصوص حرم وأزعج " [٣٥].

ويعطي لنا صاحب الهفوات النادرة معلومة في هذا الصدد قائلاً إن الغناء يكثر بين المخنثين ، وهم الحذاق الأئمة فيه [٣٦].

ويخبرنا أن المعتصم العباسي قد قعد للشرب ، فاحضر الملهين والندماء ، فحضر ابراهيم الموصلي الى المجلس ويقول :(لقد حضرت واعددت عشرة اصوات في عشرة الحان ، واجهدت نفسي فيها ، وظننت اني انال بها الغاية القصوى ، فلما دخلت رايت بين يديه عشر جامات فضة ، في كل جام مائة مثقال مسك وخمسمائة دينار جدد ، فقال من غناني ، فاطربني فله جام ، فقلت في نفسي : انا والله صاحب العشر ، وشددت حيازيمي وغنيت بصوت من الاصوات التي كنت اعددتها فطرب طرباً شديداً ، وقال : احسنت والله ياإسحق [٣٧].

ويحدثنا أن بعضهم لايرغب في سماع الغناء ، ومنهم القائد العسكري طاهر بن عبد الله بن طاهر الذي ولى خراسان بعد موت ابيه عبد الله بن طاهر ، وكان اديباً فاضلاً [٣٨].

وهنالك عند الخلفاء العباسيين وكبار رجال الدولة ،بعض الخواص من الناس

ومنهم المغنين ، فكان الخليفة الواثق يعجبه غناء حثيثة الطنبوري [٣٩]، وكانت مشغلة الثقلية ، وظلوم الشهرامية من مغنيات الامير البويهي عضد الدولة [٤٠].

وكانت في البصرة مغنية تسمى فضلة ، وتلقب خيط البرادة وأجرتها خمسة دنانير في كل ليلة ، وكانت مفرطة في الجمال وطيب الغناء ، وابتيعت الى المتوكل وحملت من البصرة الى سر من رأى [٤١].

حياة الترف

حفل عصر الصابئ بالكثير من مفردات الحياة المترفة ، وشمل ذلك على وجه الخصوص مايتعلق بحياة الخلفاء العباسيين وكبار رجال الدولة والاغنياء من الناس ، وان حياة الترف تتطلب منهم أن يتعاملوا بأسلوب خاص في حضور الخلفاء العباسيين ويخبرنا صاحب الهفوات بأن شخصاً دخل على المنصور" والمنصور ياكل وحده ، فدعاه الى الغداء ، فقال أنا شبعان ياأمير المؤمنين ، فلما خرج اخذه الربيع وضربه بحضرة أهل بيته فظنوا أن المنصور أمر بذلك ، فمضى إلى أبيه يبكي فجاء عيسى ألى المنصور وخلع سيفه بين يديه ، وضج من فعل الربيع ، فقال : ماامرت بذاك ، ولم يفعل الربيع ماتذكره إلالأمر يقتضيه ،وآستدعى الربيع وسأله من خبره فقال : أمرته ياأمير المؤمنين أن يتغذى معك ، فقال : أنا شبعان ، وإنما دعوته لتشرفه لالتشبعه ، فأدبته إذ لم يؤدبه أبوه ، فقال المنصور : أحسنت ، قد علمت أنك لاتخطئ " [٤٢].

ان حياة الترف في قصور الخلفاء العباسيين ، قد شمل ذلك فخامة القصور والمأكل والمشرب والانغماس في حياة الجواري ، فهذا الخليفة موسى الهادي كان له جارية اسمها ضياء ، فكان يجد بها وجداً شديداً [٤٣]، والحقيقة أن مثل هذا العمل مرفوض حيث يفترض أن يكون الخليفة العباسي قد شغلته مشاكل الأمة وهمومها في ظروفها الصعبة وليس الانغماس في اللهو مع الجواري .

وفي ظل الصراع العسكري والسياسي في بغداد بين الأمين والمأمون ، فإن الأمين

أمر أن يفرش له بساط على دكان في الخلد وطرح عليه نمارق ، وملئ من آنية الذهب المرصعة بالجوهر ومشام المسك والعنبر بما ملأه ، وبين يديه عشر مغنيات [٤٤].

وذكر أن المامون وهو في خراسان ، فقد وصفت له جارية في العراق ، بانها عاملة كاتبة ، لاعبة بالشطرنج والنرد ، فطلب شراءَها بمال كثير [٤٥].

ولذلك فإننا نرى إزدياد أعداد الجواري في بغداد في العصر العباسي الأخير ، إذ تم إحصاء عدد الجواري في بغداد سنة 306 هـ في الكرخ لوحدها ، فكانت (460) جارية في الجانبين الشرقي والغربي ، عدا الجواري التي لم يذكرن في تلك الاحصائية [٤٦].

ويصف غرس النعمة وصفاً دقيقاً لحياة الترف عند المعتصم ، عندما فرغ من بناء قصره في الميدان ، فإنه جمع أهل بيته وقومه وأصحابه ومواليه ، وأمر الناس أن يلبسوا الديباج ويدخلوا عليه ، وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسيفساء وهو يجلس على سرير مرصع بانواع الجوهر ، ووضع على راسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة ، وفي الديوان الأسرة عن يمينه وشماله من حد السرير إلى باب الإيوان ، فكلما دخل رجل رتبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه [٤٧].

ويذكر لنا الصابئ بأن الخليفة الواثق كان يلبس الرصافية[٤٨] فيدخل رأسه لسعتها وصغره عنها [٤٩].ويظهر لنا غرس النعمة الصابئ حياة الترف عند الخلفاء العباسيين في اقتناء الذهب والمجوهرات الثمينة ويحدثنا عن الخليفة المكتفي بالله العباسي الذي طلب يوماً من عبد الله بن الجصاص وهو اكبر الاغنياء وصاحب صياغة ،عقداً حسناً من فاخر الجوهر ليبتاعه منه ، فطلب منه ابن الجصاص عن قيمة ثمن مايريد ، فأخبره الخليفة بما يقدر بثلاثين الف دينار ، فأخبره أبن الجصاص بان هذا المبلغ لايمكنه من الحصول على مبتغاه ، وعرض عليه عقداً فيه ستون حبة ومقداره ستون ألف دينار ، فوافق الخليفة على ذلك [٥٠].

وهنالك هدايا غريبة قد تُقدم إلى الخليفة ،كما حصل مع الخليفة الموفق حيث

تم إهداؤه فيلاً كبيراً من صاحب السند [٥١].

ان حياة الترف ، دفعت بعضهم إلى العناية بالتجميل والظهور بالمظهر الحسن ، وعندهم ان علامات التجميل عند الرجال هي (العطر والصبغ والخضاب والكحل والنتف والقص والحلق) [٥٢]،وهذا ما يذهب اليه الصابئ قائلاً : إن الكثير من الرجال اعتاد على نتف شعر لحيته [٥٣]، والحقيقة ان هذا لايتطابق مع سمات اهل الدين والمصلين الذين كانوا آنذاك لهم هيئة من حلق الشوارب وتوقير اللحى [٥٤].

ومن متطلبات التجميل هو العناية بالنظافة والاستحمام، ولذلك اعتنى العباسيون بالحمامات العامة ، وكان يطلب من صاحب الحمام ان يبخر الحمام بالفحم ، في كل يوم مرتين لاسيما اذا شرع في الكنس والغسل ومتى ما برد الحمام فينبغي ان يبخره مرة اخرى [٥٥]، وهنالك من الناس من يوقد بنفسه من السحر الى الفجر ، لكي تغسل العائلة قبل خروجها الى عمل النهار [٥٦].

ويصف لنا الصابئ غلاماً يريد غسل يده بأنه كان يحمل طستاً وابريقاً ومنديلاً ديبقياً [٥٧]، وهذه الادوات هي المستخدمة في غسل الايدي والوضوء .

الأطعمة والأشربة

هنالك اشارات حول الأطعمة والأشربة في كتاب الهفوات ، ومنها أن زياد الحارثي خال السفاح الذي كا ن والياً على مكة ، فيطيب له مائدة الطعام من مضيرة من لحم جدي [٥٨]، وكانت المضيرة هي من الأكلات المرغوبة عند الوزير الصاحب أبن عباد [٥٩].

ويحدثنا بان هنالك رجلاً اسمه عبد الله بن صفوان كان يطعم كل يوم بمكة الناس في داره سويقاً وتمراً ، وياكل معهم [٦٠].

وهنالك وصف لمائدة طعام عمله بهاء الدولة البويهي ، حيث عمل سماطاً عظيماً للأتراك ببغداد ، وفرح بما تم له فيه ، ووقف يمشي على السماط ويخدم الناس ،

ويكسر الدجاج ويقدمه الى الضيوف [٦١].

وهنالك من لايشرب الماء لوحده ، فقد قام أحد الصالحين كل ليلة جمعة بأن يبرد الماء في القرب ، ويسقي ذلك الماء للناس بعد صلاة الجمعة مع خلطه بالعسل في اقداح عظيمة ، نظارتها من الحسن والعظم مالاغاية بعدها [٦٢].

التطير

من العادات والتقاليد الاجتماعية الشائعة آنذاك ، هو التطير ، وهوجزء من الموروث الشعبي في المجتمعات المختلفة في العصور الوسطى .

والتطير بكسر الطاء وفتح الباء وهو مايتشاؤم به من الفأل الرديئ وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الظباء والطير [٦٣]،وهنالك موروث للتطير في العصور التاريخية حتى يومنا الحاضر وهي ظاهرة العطاس ، الذي يتشائم الناس منه ويؤجلون اعمالهم [٦٤].

ويذكر لنا صاحب الهفوات غرس النعمة الصابئ ، ظواهر للتطير في حضرة الخلفاء الأمويين والعباسيين ، فالطريف منها ان رجلاً قدم الى الخليفة الوليد بن عبد الملك فأخبره بأنه سيعيش خليفة أربعين سنة ، فقال الوليد :"لايرضى أمير المؤمنين بضعف ذلك ، فمات في أسبوعه "[٦٥].

والأمر نفسه مع سليمان بن عبد الملك الذي لبس أفخر ثيابه ، ومس أطيب طيبه ، وركب أفره دوابه ، وتقدم إلى جميع من معه بأن يركب في زيه وسلاحه ، ونظر في مرآته فاعجبته هيئته وحسنه ، فقال : أنا الملك الشاب ، ثم قال لجارية له : كيف تريني ؟ فقالت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير ان لابقاء للإنسـان

أنت خلو العيوب ومما يكره الناس غير أنك فان

فقال لها : ويلك ما أنشدت ، فقالت : والله أعلم ، غير أن لساني نطق بما سمعت ، فاعرض بوجهه وتطير في قولها ، وعلمت الجارية بزلتها فاستطار عقلها ، ولم

تدر عليه الجمعة حتى حط في قبره [٦٦].

أما في تاريخ الخلافة العباسية ، فإن أبا العباس السفاح نظر يوماً في المرآة فاعجب بنفسه ، فسمع غلاماً يخاطب آخر في شئ كان بينهما فقال له : ميعادك إلى شهرين ، وهو آخر ما بيني وبينك ، فتطير السفاح من ذلك ، وجزع جزعاً شديداً ، وقال اللهم أنه لاحول ولاقوة لي الإبك ، فيقال إنه لم تمض عليه أيام حتى مرض ، وكان موته بعد شهرين من نظره في المرآة [٦٧].

وإن الرشيد، قد أخبره منجم يهودي قد حكم عليه بأن يموت في سنته تلك، فمات فعلا في تلك السنة [٦٨].

وفي كتاب الهفوات للصابئ ، خبر إسحاق بن ابراهيم الموصلي ، الذي دخل يوماً على الواثق وهو مضطجع ، فقال له الشيد : غني يا إسحاق صوتاً غريباً لم اسمعه منك حتى اكون عليه بقية يومي مسروراً ،ويستطرق الموصلي بالقول : فكأن الله أنساني الغناء كله إلا هذا الصوت :

ابكي الذي قد كان لي مألفاً فيك فآتي الدار من أجل ذاك

ويعلق الموصلي على ذلك :"فتبينت الكراهة في وجهه ، وندمت على ما فرط مني ، فكان والله ذلك اليوم آخر جلوسي معه " [٦٩].

وانشد ابو الطيب المتنبي بحضرة عضد الدولة البويهي :

أوه بديل من قولتي واهاً لمن نأت والبديل ذكراها

فرد عليه عضد الدولة : أوه ، وطعنه وتطير من ابتدائه [٧٠].

وانشد احد الشعراء في حضرة الوزير الصاحب بن عباد قصيدة اولها : (بقبر وما .....) ، فتطير بن عباد من افتتاح القصيدة بذكر القبر [٧١].

الموت والقبر

الموت له هيبة عند الإنسان ويذكره بالأجل المحتوم وفراق الدنيا والأهل والأحبة

، والطريف في هذا الموضوع ما ذكره الصابئ في كتابه بأن احد الجنود من أهل الشام توفي وحضر الحجاج بن يوسف الثقفي جنازته ، فصلى عليه الحجاج ، وجلس على شفير قبره ، وقال : لينزل في القبر بعض إخوانه فنزل نفر منهم ، فقال أحدهم وهو يسوي اللبن عليه : "يرحمك الله أبا قنان ان كنت ما علمت تجيد الغناء وتسرع رد الكاس ، ولقد وقعت في موضع سوء لاتخرج منه أبداً إلى يوم الذكر ، فلم يتمالك الحجاج ان ضحك ، وكان الحجاج قليل الضحك في الجد والهزل [٧٢].

الالعاب

هنالك اشارات في الكتاب الى بعض الالعاب التي يمارسها الخاصة من الناس فضلاً عن العامة منهم ،ومنها لعبة النرد [٧٣].

وكان بعض الشطرنجيين ، برسم خدمة عضد الدولة البويهي يلاعبونه [٧٤].

خاتمة البحث

يتضح لنا من البحث ، بأن كتاب الهفوات النادرة لغرس النعمة الصابئ ،هو من الكتب المهمة في التعريف بالمستوى الحضاري والاجتماعي للمسلمين عبر تاريخه وعلى وجه الخصوص في عصر المؤلف، وهو العصر العباسي الثاني .

لقد حفل الكتاب بلمحات ادبية وفنية وبمعلومات اجتماعية مهمة ، اضافت الى المكتبة الاسلامية الاجتماعية المعلومات النوعية والمتميزة النادرة .

ففكرة عنوان الكتاب فريد من نوعه ، متضمناً اخبار الخلفاء والامراء العباسيين وحواراتهم، وكذلك أخبار بعض عامة الناس.

وأن هذه الدراسة اشتملت على اللفتات والصور الاجتماعية المتميزة الواردة في متن الكتاب .

الهوامش

١ حران : أسم بلد، وهو فعَال، ويجوز أن يكون فعلان، والنسبة اليه حرنـاني./ ينظر : أبـن منظور، لسان العرب، ج13، ص111 ؛ حرناني، على غير قياس، والقياس حرانـي/ ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج2،ص542.

٢ ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج2، ص20.

٣ ينظر/ مقدمة كتاب رسوم دار الخلافة، ميخائيل عواد، ص(7-39).

٤ ينظر/ مادة (الصابئة)، دائرة المعارف الاسلامية، ج4،ص22.

٥ بقيت اسرة غرس النعمة معروفة بالرياسة والفضل والكتابة، الى القرن السابع الهجري/ ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص(191-192).

٦ ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص176.

٧ ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج1،ص(170-194).

٨ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص95.

٩ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج2، ص386.

١٠ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص11.

١١ الصابئ، غرس النعمة، الهفوات النادرة، ص175.

١٢ ينظر/ ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج1،ص267.

١٣ م.ن، ج13، ص151.

١٤ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص168.

١٥ معجم الادباء، ج17، ص92.

١٦ الصابئ، الهفوات، ص183.

١٧ م.ن، ص(218 ، 294 ، 295).

١٨ م.ن، ص 292.

١٩ م.ن، ص 210.

٢٠ م.ن، ص 390.

٢١ م.ن، ص (263، 264، 268، 361، 366).

٢٢ م.ن، ص236.

٢٣ م.ن، ص284.

٢٤ م.ن، ص 333.

٢٥ م.ن، ص162.

٢٦ ينظر: م.ن، ص 163-166).

٢٧ م.ن، ص261.
٢٨ م.ن، ص78.
٢٩ م.ن، ص 30.
٣٠ ينظر/ التنوخي، نشوار المحاضرة، ج1، ص(27–28).
٣١ الصابئ، الهفوات، ص107.
٣٢ م.ن، ص19.
٣٣ م.ن، ص42.
٣٤ م.ن، ص26.
٣٥ ابن الجوزي، تلبيس ابليس، ص245.
٣٦ الصابئ، الهفوات، ص90.
٣٧ م.ن، ص(125–126).
٣٨ م.ن، ص43.
٣٩ م.ن، ص18.
٤٠ م.ن، ص(14–15).
٤١ م.ن، ص20.
٤٢ م.ن، ص128.
٤٣ م.ن، ص(188–189).
٤٤ م.ن، ص12.
٤٥ م.ن، ص251.
٤٦ الازدي، حكاية ابي القاسم البغدادي، ص87.
٤٧ م.ن، ص17.
٤٨ الرصافية : قلنسوة طويلة عالية، وكان يلبسها الخلفاء العباسيون، ينظر/ الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص81.
٤٩ الصابئ، الهفوات، ص362.
٥٠ م.ن، ص160.
٥١ م.ن، ص269.
٥٢ الجاحظ، الرسائل، النساء، ج3، ص142.
٥٣ الصابئ، الهفوات، ص221.
٥٤ م.ن، ص235.
٥٥ ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص69.

٥٦ الصابئ، الهفوات، ص68.
٥٧ م.ن، ص(176-177).
٥٨ م.ن، ص140.
٥٩ م.ن، ص342.
٦٠ م.ن، ص374.
٦١ م.ن، ص141.
٦٢ م.ن، ص373.
٦٣ ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص512.
٦٤ الابشيهي، المستطرف، ج2، ص90.
٦٥ الصابئ، الهفوات، ص75.
٦٦ م.ن، ص(36-37).
٦٧ م.ن، ص111.
٦٨ م.ن، ص146.
٦٩ م.ن، ص32.
٧٠ م.ن، ص(27-28).
٧١ م.ن، ص28.
٧٢ م.ن، ص128.
٧٣ م.ن، ص231.
٧٤ م.ن، ص145.

المصادر والمراجع

- الابشيهي/ شهاب الدين احمد (ت850هـ/ 1446م)/
١ -المستطرف في كل فن مستظرف، المطبعة المحمودية، مصر، بدون سنة.
- ابن الاثير، عزالدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم (ت630هـ/ 1232م)/
٢ -الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1956م.
- الازدي، محمد بن احمد ابي المطهر (توفي منتصف القرن الرابع الهجري)/
٣ -حكاية ابي القاسم البغدادي، مكتبة المثنى، بغداد، 1902م.
- ابن بسام المحتسب (سنة وفاته مازالت مجهولة)/
٤ -نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1968م.
- التنوخي، ابو علي المحسن بن علي (ت384هـ/ 994م)/

5- نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، 1973م.
- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر / (ت255هـ/ 868م)/
٦ -رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1979م.
- ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/1200م)/
٧ -تلبيس ابليس، دار الرائد العربي، بيروت، بدون سنة.
- ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت681هـ/ 1285م)/
٨ -وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون سنة.
- ابن رشيق القيرواني، ابو علي الحسن(ت456هـ/1064م)/
٩ -العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل،بيروت، 1972م.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين ابـو المظفر يوسـف بن قزاوغلي البغدادي (ت654هـ/1256م)/
١٠ – مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، تحقيق: جنان جليل محمد، بغداد، 1990.
- الشهرستاني، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت548هـ/1153م)/
11- الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1986م.
- الصابئ، ابو الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم (ت448هـ/1056م)/
12- رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد، ط2، دار الرائد العربي، بيروت، 1986م.
- الصابئ، غرس النعمة ابي الحسن محمد بن هلال (ت480هـ/ 1088م)/
13- الهفوات النادرة، تحقيق: د. صالح الاشتر، ط2، دار الاوزاعي، بيروت، 1987م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت764هـ/ 1362م)/
14- الوافي بالوفيات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد (ت711هـ/1311م)/
15- لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون سنة.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله (ت626هـ/1228م)/
16- معجم الادباء، دار احياء التراث العربي، بيروت، بدون سنة.

المراجع

- دائرة المعارف الاسلامية/
١ -مادة (الصابئة)، ج4، ترجمة: احمد الشيناوي وآخرون، بدون سنة.

(Al-Saibia, GH.Alneaama, and the Islamic Community)
historical study

Ass.Prof.Dr. Abdul kareem Azldeen
Collage For Woman, Historical Department
Baghdad University

The Islamic-Arabic hertiage is includes for the famous arabic books in the different fields, there are many books for literature and history which are included different materals about the islamic community and it's activity.

Al- Haffoat book, is the book includes large number issues for stories, which are tell us about the happenies and the news are releated to that time, with areal actions.

Also, the book tells about the civilization and the nature of the life for that times.

This type of books is verey important because the general historical books are told about the political happenies, but Al- Haffoat book is one of the original abbaside books with large values in the literature and history about the middle age.

The research includes, study of the sources books, social characterion, singing and music, luxury life, foods and drinlcing, pessimism, the death, and the playings.